

## تأملات في اسباب سعادة المسلمين وشقاهم

### دور العلم في النهوض بالأمم

د . احسان حقي

في كل زمان وفي كل قوم يظهر بين حين و حين افراد من العباقة يفرضون شخصياتهم و عقولهم على قومهم او على كل العالم ، وكما يظهر افراد عباقة تظهر اقوام عباقة ايضا تفرض نفسها على غيرها بالحججة والمنطق والحكمة والعقل او بالقوة . واذا كان عدد افراد العباقة قليل بالنسبة الى الاقوام العبرية فاننا ، مع ذلك ، نستطيع ان نقول بأنه لا يوجد قوم من الاقوام العالمية الا وقد امتاز في وقت ما بعصرية من العبريات . فلو اخذنا الاقوام القديمة كالفراعنة والاشوريين والكلدانين والحتيين والفينيقيين والصينيين ثم الذين يلونهم كاليونان والرومان والفرس والهنود ثم الذين يلونهم كالاتراك والعرب ثم بعض الاقوام الاوروبية القديمة والحديثة كالاسبان والبرتغال والطليان والانكليز والافرنسيين والجرمانين وغيرهم نجد ان كل هذه الاقوام قد مر عليها زمن من الأزمان كان لها فيه شأن وماض مجيد في ناحية من نواحي الحياة العقلية او العلمية او الفكرية او الحربية او غير ذلك ، ثم نجد جذوة تلك العصرية قد انطفأت فجأة كما ظهرت فجأة

ثم عادت تلك الامة خاملة متفسخة و كأنها لم تك شيئا مذكورة  
بالامس .

وقد يعجب المرء من نهوض تلك الامة المفاجع ومن تدهورها  
المفاجئ ايضا ويقاد يشك بأن يكون هؤلاء الولاد والاحفاد  
الصغار المفاليك هم من نسل اولئك الاجداد العظام الميامين ،  
ولكن لا عجب في ذلك فالامم تنہض بالسعى والجد والعمل  
وتضمحل وتلاشى بالكسل والاتکال والجهل .

واذا حق لامة ، على ما هي عليه من خور وهزال وتفكك وتصدع ،  
ان تفتخر باجدادها وبماضيهما فانما يحق لنا نحن المسلمين ذلك اكثر  
من اي امة اخرى لأن لنا ماضيا ساطعا كالشمس لا يمكن نكرانه او  
تجاهله واهماله لأنه شمل كل نواحي الحياة . وقد العالم قرونا الى  
ينابيع العلم والعرفان .

واذا كان رجوعنا الى ذاك الماضي لا يسمى ولا يعني من جوع  
لأنه اشبه برجوع التاجر المفلس الى دفاتر حساباته القديمة ليذكر ما  
كان له من دين على فلان وفلان وما كان عليه من واجبات قصر بها ،  
فإن هذا الرجوع لا يخلو من فائدة لأن الذى ليس له تليد ليس له جديد ،  
ورجوعنا الى ذاك الماضي قد يحثنا على العمل لنسعيه ذاك  
الماضى ورجوع الاصليل الى اصله اهون من بلوغ المهجين مرتبة  
الاصليل .

واذا افتخرنا ، نحن المسلمين ، بماضينا فاننا نفتخر باجداد سطروا  
في سجل الدهر اروع نهضة امتازوا بها على جميع الامم التي  
سبقتهم او التي جاءت بعدهم لأن نهضتهم شملت جميع نواحي الحياة

من مادية ومعنوية وعلمية وعقلية وفلسفية واجتماعية وإذا لم يكن للإسلام من فضيلة الا كونه ساوي بين البشر وقال لأفضل لعربي على عجمي ولا لا يبضم على اسود الا بالتفوي لكتفي فكيف به وقد قلب العالم كله في تفكيره ومعتقداته ونظرته الى الحياة ؟

لقد فتح المسلمون العالم ، الذى كان معروفا آنذاك ، من اسبانيا الى الصين ، فى اقل من قرن ولم يفتحوه عسكريا بل فتحوه فكرييا وعقليا اذ قصوا على عبادة الاوثان ورفعوا شأن الانسان من مرتبة البهيمية الى مرتبة الانسانية العليا ونشروا لغة القرآن حتى اصبح العالم كله يدين بكل شى لهذا الدين العظيم .

يقول بعض علماء الغرب المتعصبين بأن المسلمين انما نشروا الحضارة اليونانية لأنهم ترجموا كتب اليونان وعملوا بها ، وهذا القول بقدر ما يدل على التعصب فانه يدل على الجهل لأن العالم يعلم بأن العلم لا يأتي ابتداعا بل يأتي اتباعا ، فالذى اخترع الصرف والنحو كان بحاجة الى الحروف الهجائية والذى اوجد الادب كان بحاجة الى الصرف والنحو وهكذا فان العلوم تبنى بعضها على بعض ولا تولد كاملة ، وكل عالم يضع لبنته فى بناء علمه باستمرار و كلما وضعت لبنة جديدة زاد العلم تقدما ، وقول هؤلاء العلماء المتعصبين اشبه بقول احد الانكليز للشيخ محمد عبد مفتى الديار المصرية : ان كثيرا مما فى القرآن موجود فى الانجيل والتوراة اللتين بين ايدينا فما هو فضل القرآن ؟ فقال له الشيخ محمد عبد : لقد قال لنا الله هذا من قبل ان تقوله انت : اذ قال الله بشأن القرآن ، ( ان هذا لففي الصحف الاولى صحف ابراهيم وموسى ) فبهت الذى كفر .

الحقيقة ان المسلمين اخذوا علوم غيرهم فهذبواها ونقوها واضافوا عليها وظهر في المسلمين علماء ما زال علماء الغرب الى يومنا هذا ينحون منحاهم وينحنون برؤسهم اكبارا واجلالا لهم . واننا اذا نظرنا الى ما قدم المسلمون من خدمات للعلم لا نستطيع مهما كنا متحاملين عليهم ومغالين في العداء لهم الا ان نكبر جهودهم الجباره وعقولهم الناضجة اذ تناول المسلمون اصول المعارف الانسانية وغاصوا في اعماقها وقسموها الى فروع قال صاحب كتاب ( مفتاح السعادة ) انها بلغت ثلاث مئة فرع .

وان ما تركه المسلمون ولا سيما في العصور الثلاثة الاولى من الاسلام من تراث ضخم لا يضارعه تراث في العالم ، فالمسلمون اخذوا العلوم فجة وانضجوها وجعلوا لها قواعد ثابتة ومثال ذلك انهم اخذوا الطب عن بقراط ( المتوفى سنة ٣٧٧ قبل الميلاد ) وجاليوس ( المتوفى سنة ٢٠١ ميلادية ) وعن بعض المهنود والسريان ولكنهم لم يأخذوه كما هو من غير تمحيص بل اخذوه وهذبوا ونقوه من الشعوذة والتنجيم والسحر ودخلوا عليه نظريات جديدة ونقدوا مذاهب القدماء في تعليل بعض الامراض واستحدثوا اشياء جديدة في التشخيص المرضي كما انهم اوجدوا ادوية جديدة ، فالاطباء المسلمين هم الذين اكتشفوا علاج اليرقان والهيبة وهم الذين عالجو الحمييات والفالج بالفصد والتبريد على خلاف ما كانت عليه الحال من قبل وهم اول من استعمل المخدر في الطب والكى في الجراحة وصب الماء البارد على الرأس لقطع النزف ، واعظم من ذلك انهم توصلوا الى طريقة تفتيت الحصاء في الكلية او المثانة ، كما استطاع ابوالقاسم الزهراوى خلف

ابن عباس ( المتوفى ١١٠٦ ميلادية ) ان يعين المكان الذى يجب ان يشق فى الجسم لاخراج الحصاة بعملية جراحية .

وكان ابوبكر الرازى اول من كتب فى امراض الاطفال وفى مرض الجدرى والهيبة وهو الذى استعمل الكحول للتطهير . اما الرئيس ابن سينا سيد الطب وجالينوس العرب ، كما يسميه الاوربيون ، فقد ظل قانونه شريعة الطب فى العالم زهاء ستة قرون وكان يدرس فى المدارس الطبية فى فرنسا وایطاليا وخاصة فى مونپيليه ، فى فرنسا ، حتى وسط القرن التاسع عشر .

والمسلمون هم الذين وضعوا اصول علم الصيدلة وتركيب العقاقير وهم واضعوا علم الكيمياء وهم الذين عرفوا فن التقطر والتريش والتضفية والتذوب والبلورة والتتكليس وهذا ما يعترف به الاوربيون .

وبرع المسلمون فى علم النبات ولا سيما ماله علاقة بالطب وغير ذلك من العلوم . فالمسلمون لم يكونوا ، اذن ، ناقلين للعلوم بل اخذوا علوم الغير واضافوا عليها وهذبوها وكسوا اكثراها صبغته العلمية المتميزة بعد ان كان خليطا ليس له صفة مميزة .

وكان من البديهى ، بعد ان بلغ المسلمون هذه المرتبة الرفيعة من العلوم ، ان يعنوا بالكتب وحفظها فقد ذكر التاريخ انه كان فى مدينة طرابلس ( ليبيا ) فى العهد الفاطمى مكتبة تضم ثلاثة ملايين مجلد ، احرقها الغربيون ابان الحروب الصليبية سنة ٥٠٢ هجرية ، وكان فى مكتبة العزيز بالله الفاطمى ( نزار بن المعز المتوفى ٩٩٦ ميلادية ) فى القاهرة مليون وست مئة الف مجلد اغرقت فى النيل او القيت فى الصحراء حتى صارت تلالا عرفت بتلال الكتب ، وكان فى مكتبة

الحكم الثاني المستنصر في قرطبة ، المتوفى سنة ٩٧٦ ميلادية ) ست  
مئة الف مجلد ، هذا بالإضافة الى ما حوت مكتبات العراق وفارس  
وسمرقند وبخارى وغيرها من كتب احرقها التتر او القوها في دجلة .

قد لا يدرك ابن اليوم أهمية هذه الاعداد الضخمة التي كانت  
تحويها المكتبات الاسلامية لأنه يظن ان الذى يملك المال يستطيع  
في ايامنا هذه ان يشتري ملايين الكتب في اسابيع ولكن حينما يفكر  
بأن كل هذه الكتب كانت مخطوطة ، اذ ان المطبعة لم تكن موجودة ،  
وانه لم يكن يوجد من الكتاب الواحد ، في العالم كله ، الا نسخة  
واحدة او بضع نسخ ، وان ثمن النسخة كان ، في بعض الاحيان ،  
يواوزي ثقلها ذهبا يدرك عظمة هذه المكتبات وما انفق في جمعها من  
جهد ومال وعلم ، ولا ادل على عظمة هذه المكتبات الاسلامية من ان  
ملك فرنسا شارل الخامس المعروف بلقب ( LE SAGE الحكيم )  
والذى تولى الملك سنة ١٣٦٤ ، اي بعد الحكم الثاني بنحو اربع مئة  
سنة ، لم يستطع ان يجمع في مكتبه الا تسع مئة كتاب ثلاثة كتب دينية  
مبسيحة .

وكما انا نحن الشرقيين نذهب في ايامنا هذه الى الغرب ( اوروبا  
وامريكا ) لكي نتزود بالعلم فقد كان رجال العالم الغربي ، ابان النهضة  
الاسلامية وعصورها الزاهرة يقصدون البلاد الاسلامية ولا سيما  
الاندلس ليتزودوا بالعلم لأن العلم في اوربا ، آنذاك ، كان محصورا  
برجال الدين وكان هؤلاء يخلطون الدين القائم على ما يعلمون من  
الانجيل والتوراة ، بالشعودة ، فلما اتصلوا باسبانيا المسلمة استيقظوا  
من غفلتهم وأخذوا يطلبون العلم على ايدي المسيئين ، وفي

سنة ١١٣٠ ميلادية انشأ المسيحيون مدرسة للترجمة في طليطلة تولاها اسقف واخذت تنقل الكتب العربية الى اللغة اللاتينية ، وهى اللغة العلمية الوحيدة في كل اوربا آنذاك ، ثم انشئت مؤسسات اخر لمثل هذه الغاية وظلت تعمل ثلاثة قرون اي القرن الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر وبلغ كل ما ترجموه ثلاث مئة كتاب ونيف وكانت كتب الرازي والزهراوى وابن سينا وابن رشد هى الكتب المفضلة لديهم وقد ترجموا بعض الكتب اللاتينية من ترجمتها العربية .

وقال المؤرخ الانكليزى جورج مولر فى كتابه : ( فلسفة التاريخ ) ان مدارس المسلمين فى اسبانيا كانت المصادر للعلوم وكان الاوربيون يأتونها من كل قطر يتلقون فيها العلوم الطبيعية والرياضيات وغيرها من العلوم التى لم يكن الغرب قد سمع بها .

وكما كانت اسبانيا مركزا عاما للثقافة فى العهد الاسلامى فقد كان جنوب ايطاليا ، بعد أن استولى عليه المسلمون ، واسطة لنقل الثقافة العامة الى اوربا وكان فى صقلية والبندقية مؤسسات لترجمة العلوم ولولاها لما ظفرت اوربا بكتاب من كتب اليونان ولا بشى من علوم المسلمين .

وكما ان بعض رجال الدين يتغصبون اليوم ضد تعلم بعض العلوم فقد كانت الحالة فى اوربا فى القديم ، يوم كان العلم وقفا على رجال الكنيسة ، مثل ذلك وكان رجال الدين يتغصبون ضد تعلم العلوم الاسلامية ومن ذلك ان راهبا افريسيانا درس فى اشبيليا وقرطبة الرياضيات والفلك ثلات سنين ثم رجع الى بلاده ينشر العلم الحق فاتهموه بالشعوذة والسحر ورموه بالكفر ايضا وقد قاسى فى سبيل قول

الحق الامرين من قومه ولكن علمه تغلب على جهلهم وظل يرتفقى فى سلك الكهنوت حتى اصبح بابا باسم سيلفستر الثاني وكان معدودا من علماء عصره وقد ترجم بعض الكتب العربية الى اللاتينية .

وقد انصف احد كتاب اوربا المسلمين اذ قال : ان العلم الحقيقى انما دخل اوربا عن طريق العرب لاعن طريق اليونان لأن اليونان امة فكر وال المسلمين امة علم .

هكذا كنا ايها المسلمون فهل انت عاملون حتى تقولوا بلا خجل او وجل : نحن ابناء اولئك العظماء واننا سنعمل مثلما عملوا وسنكون امة اعمال لا امة اقوال ؟

